تفريغ محاضرة

سِمَاتُ العِلْمِ النَّافِعِ

للشيخ: خالد بن عثمان السبت

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧

[فريق التفريغ]

المواضيع

مقدمة ٣

شرف العلم ومنزلته ٤

العلوم المذمومة في الكتاب والسنة ٩

العلوم النافعة ٢١

سمات العلم النافع ٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

*[1] الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وأما بعد: أيُّها الإخوة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في هذا الوقت الشَّديد في تاريخ الأمة الذي يُسَجِّلُهُ التاريخ من الأحداث الكِبار التي تَمُرُّ بها، نسأل الله -عزَّ وجلَّ- في هذا المكان الشريف، وفي هذا اليوم الشريف، أن يُهَيِئ لهذه الأمة أمر رُشْدٍ يُعَزُّ فيه أهل طاعته وَيُذَلُّ فيه أهل معصيته، وَيُؤْمَرُ فيه بالمعروف ويُنْهَى فيه عن المنكر..

كما نسأله -تبارك وتعالى- أن يَرُدَّ المسلمين إلى دينهم ردًا جميلًا، ونسأله -جلَّ جلاله- أن يَنصر دينه وأن يُعْلِي كلمته، وأن يُعِزَّ أولياءه وأن يَخذُل الشرك وأهلَه، كما نسأله -تبارك وتعالى- أن يَنصر من نَصر الدِّين، وأن يَخذل من خَذل الإسلام والمسلمين.

أيُّها الإخوة أرحب بكم في هذه الأُمسية أحسن ترحيب؛ فقد اجتمعتم لطلب العلم، فنسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعل اجتماعنا وإياكم اجتماعًا مرحومًا، وأن يجعل تَفَرُّقَنَا بعده تفرقًا معصومًا، وأن لا يجعل فينا ولا معنا شقيًا ولا محرومًا.

[1] رابط المحاضرة: https://www.khaledalsabt.com/cnt/lecture/142

شرف العلم ومنزلته

أيها الإخوة العلم صفةٌ شريفةٌ؛ يَدُلُّكَ على شرفها أنَّ أحدًا من الناس لا يرضى بِحال من الأحوال أن يُوصف بأضدادها؛ فلو قلت لأحدٍ من الناس مهما كان جهله متجذرًا، لو قلت له: "يا جاهل" لَغَضِبَ، ولم يرضَ بهذا الوصف الذي نسبته إليه، دَلَّ ذلك على أن الجهل لا يرضاه أحدٌ لنفسه، ولو لم يكنُ متحققًا بالعلم، فهذا يَدُلُّ على مكانة العلم ومنزلته.

وهو أدنى الأدلة التي يُستدل بها على شَرفه، ويكفيك من مَطلوبٍ شريف أن يكون بهذه المثابة، أي يكون أدنى الأدلة التي يُستدل بها على منزلته وشرفه بهذه المثابة من القوة في الحُجَّة!

ومن أدنى الألة التي يُمكن أن يُستدل بها على شرفه: أن الحيوان يَشْرُفُ به، فضلًا عن الإنسان، ألم يقُل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]، فهذه الجوارح من الحيوانات والطيور إذا اصطادت للإنسان وكانت مُعَلَّمَةً فإنه يَحِلُّ ما صادَتْه، وإن كانت غير معلَّمةٍ فإنه يَحرُم وله حكم الميتة، هذا الحيوان الكلب وما في معناه يكون بهذه المرتبة إذا تعلَّم، يِحلُّ صيده، فإن بقي من غير تعليم لم يَحِل ما اصطاده.

وأما الأدَّلة الواضحة المشهورة التي تدُّل على منزلة العلم فهي كثيرة جدًا، ذكرها الله –عز وجل– في كتابه، وذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في سُنَّته، وهي معلومة لنا جميعًا، ألم يقل الله عز وجل مُبينًا تَفاضل أهل الإيمان وتَفاوت رُتَبِهم: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا

﴿الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]؛ دَلَّ ذلك على أن مراتب العالِمِين من أهل الإيمان فوق مراتب سائر المؤمنين، فهم فوقهم وكلنا يُريد أيها الإخوان أن يُحَصِّلَ المراتب العالية عند الله عز وجل.

الإنسان –أيها الإخوان– إذا تَعَلَّمَ تَهَذَّبَتْ نفسه، وارتفع عن غِلَظ الجهل وعن دَرَكَاته وَسَمَا وارتفع، تعلو منزلته عند الله عز وجل وترتفع ويحصّل المنازل العالية من الجنة.

وليس حديثنا أيها الإخوان عن شرف العلم، وإنما حديثنا عن ذلك **العلم النافع** الذي نريد أن نُحدِّد مَعَالمه، كي نَتَحَلَّى به؛ وذلك أن العلم تارة يكون شريفًا حميدًا له هذه الفضائل والشمائل، وتارة يكون مذمومًا لا يزيد صاحبَه إلا انحطاطًا، وبُعدًا عن الله عزَّ وجلَّ، وانحرافًا عن الصّراط المستقيم.

ونحن إذا تتبَّعنا النصوص الواردة في الكتاب والسنة التي يذكر الله عز وجل فيها العلم نجد أنَّها تارةً تذكر العلم على سبيل المدح، وتارة تذكره على سبيل الذَّم، فمِن ذِكره على سبيل المدح قول الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وهذا استفهام، وهذا النوع من الاستفهام في مثل هذا المقام يكون مُضَمَّنًا معنى النَّفي، ومعنى الآية: "لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"، والقاعدة في هذا الباب –أيها الإخوان–: أنَّ نفي الاستواء في مثل هذه المقامات يُحمَلُ على أَعَمِّ معانيه وأحواله.

فإذا قال: قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، أي: لا يستوون، كما قال الله عزَّ وجلَّ في مواضع أخرى في نفي الاستواء: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، فيقال في ذلك: لا يستوون في محياهم، ولا يستوون في عملهم، ولا يستوون في

مماتهم، ولا يستوون في حال بَعْثهم ونُشُورهم، ولا يستوون في سَيْرهم على الصّراط، ولا يستوون في حال الحساب، ولا يستوون أيضًا المنازل عند الله عزَّ وجلَّ في دار كرامته.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لا يستوون من كل وجه، وشَتَّان بين العالِم وبين الجاهل!

والمقصود بهذا العلم الذي لا يستوي أصحابه مع غيرهم: هو العلم النافع الذي يُقَرِّبُ إلى الله عزَّ وجل -كما سيأتي-.

ومما يدل على ذلك أيها الإخوان أنَّ الله تبارك وتعالى جعل شهادة أهله بمنزلة! وذلك شرفٌ كبير لا يُدانيه شرف، ألم يقل الله عز وجل في شهادة عظيمة على أعظم مشهودٍ به: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فذكر شهادته وشهادة الملائكة وذكر شهادة الذين أوتوا العلم على أعظم مشهود به وهي قضية التوحيد، أنَّ الله واحدٌ لا شريك له، وهذا الاقتران يدل على منزلة العالِمين وعِظَم مكانتهم.

كما أن الله عزَّ وجلَّ جعل أهله هم أهل الخشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، فجاء به بأسلوب الحَصر: إنَّما يخشى الله، كأنه يقول: لا يخشى اللهَ سوى العلماء.

كما جعله سببًا لتفضيل آدم -صلى الله عليه وسلم- على الملائكة، ومعلومٌ أنَّ الشرف -أيُّها الإخوان- الذي يلحق الآباء يلحق الأبناء إن كانوا على طريقتهم وقد اتَّصفوا بصفتهم، فالله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣]، فدل ذلك على شرف آدم صلى الله عليه وسلم ورِفعة مرتبته، وهو يدل على شرف الآدميين أيضًا ومنزلتهم من بين سائر الخلائق.

ولا أقصد بذلك أن جنس بني آدم أفضل من الملائكة فهذا أمرٌ لا طائل تحته، وبحثٌ لا حاجة لمناقشته ومُذَاكرته؛ إذ إنه لا يترتَّب عليه عمل، ولا يَنبني عليه نَفعٌ يحتاج إليه العبد في دنياه أو في آخرته.

هذا العلم النافع -أيُّها الإخوان- الذي اجتمعنا لنرسم صورته، هذا العلم هو الذي طلبه موسى صلى الله عليه وسلم وهو الكليم الذي اصطفاه الله -عز وجل- على الناس برسالاته وبكلامه وعلَّمه من العلوم ما لا يُقادَر قَدْرُه، ثم مع ذلك يخرج مع غلامه إلى شاطئ البحر ويقول لفتاه: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]، فلمَّا لقي الخضر قال له بأسوبٍ تلطَّف به في غاية التَّلطُّف:﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، فخرج موسى صلى الله عليه وسلم طالبًا لهذا العلم.

وهذا العلم النافع هو الذي سأله نبينا صلى الله عليه وسلم كما في حديث جابر بإسناد حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**اللهم إنِّي أسألك علمًا نافعًا**)، وهذا تعليمٌ للأمة أن يسألوا ربَّهم أن يعلِّمهم ما ينفعهم.

وصَحَّ عنه صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو ربَّه: (**اللهم انفعني بما علَّمتني وعلِّمني ما ينفعُني وزدني علمًا**)، وهو الذي أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمَّته إلى سؤاله كما في حديث جابر الذي سبق كما في بعض رواياته: (**سَلُوا الله علمًا نافعًا**)؛ فنسأل الله عز وجل أن يرزقنا وإياكم علمًا نافعًا يقودنا إلى مرضاته ومحابِّه -جلَّ جلاله-.

العلوم المذمومة في الكتاب والسنة

وتارةً يُذكر العلم في الكتاب والسنة على سبيل الذَّم، وذلك لأمور متعدِّدة:

أولها: أن يكون العلم في نفسه نافعًا ولكن صاحبه لم ينتفع به، فصار ذلك وِزْرًا عليه وحِمْلًا يُرهقه ويُثقل كاهِلَه، ويكون شهادة عليه عند الله -عز وجل-.

وإذا نظرتم في القرآن -أيها الإخوان- والأمثال التي ذكرها الله -عز وجل- فيه تجدون أنَّه لا توجد أمثال في الشِدَّة كالأمثال التي ذُكِرَت في أهل العلم الذين لا يعملون بعلمهم! أسوأ مَثَلٍ يصوِّر حالة الإنسان هي تلك الأمثال التي ضربها الله -عز وجل- لأهل العلم الذين لا يعملون بما علِموا؛ فالله -عزَّ وجل- وصف بذلك أمَّةً من الأمم، ووصف به رجلًا من الناس.

أما الأمة فهم بنو إسرائيل، اليهود، حينما تخلَّوا عن الأمانة التي حمَّلهم الله عز وجل إياها، وكتموا ما عندهم من العلم الذي كان يجب عليهم أن يُدلوا بمُقتضاه بشهادة يشهدون بها على صدق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فكتموا ذلك حسدًا من عند أنفسهم، فقال الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، مثَّلهم بهذا المثل: (الحمار)، وإذا تأمَّلت هذا المثل تجد فيه من صور الشِّدة والبشاعة الذي يلحقهم شَنَآنُها شيءٌ كثير من وجوه متعددة؛ الحمار هو أبَلْد الحيوان وأسْمَجُه وأَذَلُّه وأحطُّه، فشبَّههم الله -عز وجل- بالحمار، وفي أي حال؟ حينما يحمل كتبًا عظيمة فوق ظهره وهو لا يدري عنها شيئًا،

ولا يفهم منها شيئًا، ولا ينتفع بها، وليس له من هذا العلم أو من هذه الأسفار إلا التَّعب، فهي تُرهقه وتُثقل كاهله من غير طائل..

كالعِيْسِ في البَيْدَاءِ يقتُلُها الظَّمَا والماءُ فوقَ ظُهُورِها مَحْمُولُ!

فهكذا صوَّرهم الله عز وجل..!

وأما المثل الآخر فهو ذلك الإسرائيلي أيضًا، وكان من علماء بني إسرائيل، حيث ضرب الله -عز وجل- به المثل بالكلب في أسوأ حالته حينما يُخرج لسانه يَلهث، وذلك لا شك أنه مشهدُ في غاية القُبح ويوجب للنَّفس نُفْرةً وكراهيةً لا تخفى على كل ذي ذوقٍ صحيح، يقول الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، يعني إن تابعته وطاردته وطردته يلهث، وقد يكون معذورًا في هذه الحالة لأنك حملت عليه أي تابعته وطردته وزجرته، ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ فهو يلهث في كل أحواله، هذا مثلهُ.

كما قال الله عز وجل في ذكر هذا العلم الذي لا ينفع: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

والشاهد هو قوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ فعلى أحد التَّفسيرين المشهورين في الآية: أضلَّه الله على علم منه بالضلال، كان عارفًا بالهدى وعالمًا به ومع ذلك ضلَّ عن

علم، فلم يكن ضلاله بسبب جهله وعدم وضوح الحق. له فلا شك أن هذا العلم وأن كان نافعًا لكن صاحبه إن لم ينتفع به فهو مذموم بلا ريب.

والثاني من الأحوال التي يُذمُّ بها العلم في كتاب الله عز وجل: **هو أن يكون العلم في نفسه مذمومًا لكونه من العلوم الضَّارة أو العلوم التي يغلب عليها الضَّرر.**

كما قال الله -عز وجل- عن اليهود حينما اشتغلوا بالسحر وبتعلمه وأعرضوا عن كتاب الله عز وجل وعن العمل بالتوراة، فقال الله -تبارك وتعالى- عنهم: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ..**﴾، إلى أن قال الله -عز وجل-: ﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٠٢].

فهؤلاء كانوا يتعلَّمون ما يضرهم ولا ينفعهم، فدلَّ ذلك على أن بعض العلوم أنها مذمومة، وأنها ضارَّة وأن تعلُّمها يحطُّ من مرتبة صاحبها ويهوي به في الدَّركات.

﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ**﴾ أي السِّحر، ﴿**مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾؛ أي ليس له في الآخرة من نصيب.

ويدخل في هذه العلوم الضارة -أيها الإخوان- سائر العلوم التي لا خير فيها ولا نفع، أو أن الضَّرر غالب عليها؛ كعلم النجوم الذي يرادُ به التأثير لا التسيير، لأن علم النجوم منه ما يتعلق بالتأثير وهو من العلوم الباطلة التي يتعلَّمها المُنجِّمون والسَّحرة، ويعتقدون فيها اعتقادات أن

النجوم في أحوالها وأشكالها وتنقُّلاتها لها تأثيرات في الأحوال الأرضية، ومجريات الأمور من نصر وهزيمة ورزق وحبس للمطر وما إلى ذلك مما يقع للخلق.

فلا شك أن هذا علم باطل وأن هذه النجوم لا علاقه لها بذلك، وإنما يُستفاد منها ثلاثة فوائد: فهي زينة السماء، ويهتدي بها الناس في أسفارهم، ويعرفون بها الشهور والعدد ويعرفون بها أوقات الصوم والحج وما إلى ذلك ،كما أنها رجوم للشياطين، فهذه ثلاثة أمور تُستفاد من النجوم ويُنتفع بها، وما عدا ذلك فلا يجوز التَّوسُّع فيه.

فإن تعلمها الإنسان للمعنى الذي ذكرته أولًا، وهو ليتعرَّف بها على مُجريات الأمور التي يقدّرها الله عز وجل؛ فلا شك أن هذا علم باطل ولا حقيقة له، وهو مبني على أساس هارٍ وهو من العلوم الكفرية، علم التأثير.

وهكذا سائر العلوم الضارة كعلوم الموسيقى والألحان، وعلوم الرقص، وعلوم الخُدَع التَّخيليَّة التي يُخيِّل صاحبها للناس أنَّه من السحرة مثلًا لمعرفته بخواص المواد أو خِفَّة الحركة أو غير ذلك مما يستهوي به الآخرين.

وإذا نظرتم إلى بعض الكتب التي تذكر العلوم ككتاب (مفتاح السعادة) لطاش زاده وجدتم علومًا كثيرةً تفوق الحصر، لا يخطر ببالك علم من العلوم إلا وتجد مؤلَّفات قد أُلِّفت فيه، ولا شك أن لكل ساقطة لاقطة، والله عز وجل يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فالحاصل أن هذا من العلوم الضارة، كذلك أيضًا ما حدث في الأمة من العلوم الكلامية والمناهج الفلسفية التي كانت نتيجةً لترجمة كتب اليونان وغيرهم من الأمم المنحرفة ذات

الحضارات المُنحَلَّة، فتُرجمت تلك الكتابات فانكفأ كثيرٌ من الناس عليها يدرسونها ويتعلمونها، حتى قال الغزالي مُستفزًا للعلماء الذين عاصروه والذين جاؤوا بعده، يقول: "كل من لم يتحقَّق بالعلوم الكلامية فإنَّه لا يُوثَق بعلمه واجتهاده".

فكان ذلك سببًا لانهماك العلماء في هذه العلوم، حتى إن الواحد منهم صار إذا ألَّف كتابًا صار يخلط هذه العلوم بهذا الفن وإن كان لا يَمَتُّ إليها بصلة؛ ليثبت تحصيله لتلك المراتب العالية –مراتب المجتهدين– كما زعم الغزالي، وليطرد عن نفسه الجهل، ولئلَّا يُتَّهم بأنه لم يبلغ تلك المراتب.

فصارت تلك العلوم تُخلَط في العقائد، وهذه هي الخطورة، فصارت كتب العقيدة عند كثيرٍ من هؤلاء المنحرفين كتب كلامٍ وجدلٍ وشكوكٍ وشُبُهات وحُجَج متهافتة يضرب بعضها بعضًا وينقُض بعضها بعضًا، ولا تُورِث علمًا ولا تُورث خيرًا ولا تُورث يقينًا، وإنما تُورث شكوكًا وطُعونًا في أصول الاعتقاد، كما قال بعضهم مُصَوِّرًا الحالة التي وصل إليها بعدما خاض ذلك البحر الخِضَم وترك علوم أهل الإسلام، يقول:

نهاية إقدام العالمين ضلالُ وغاية دُنيانًا أذىً ووبالُ

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أنْ جمعنا فيه قِيل وقالوا

وكم من جبالٍ علا شرفاتُها رجالٌ فزالوا والجبال جبالُ

فهو لا يُصَوِّرُ حال المطمئنين بالإيمان والرَّاسخين بالعلم ممن عرفوا حقيقة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنَّما يصوِّر حال أولئك المُتهوِّكين الذين أعرضوا عن الكتاب والسنة واشتغلوا بهذه العلوم الضارة.

وفي كل عصرٍ يخرج للناس قرنٌ يبدو لهم بصورة تستهويهم، فيتكالبون عليه ويشتغلون به ويُعرضون عن العلوم النافعة ويظنُّون أن ذلك يزيدهم قربًا عند الله عز وجل ورفعةً، ولا يستبينون ما فيه إلا بعد فوات الأوان، وانصرام القرون، وهلاك أُمَم ممن تشاغلوا به عمَّا هم بصدده، وعما يُجَلِّي لهم الطريق التي أمرهم الله عز وجل بسلوكها..

فهذه العلوم الكلامية والمناهج الفلسفية والقواعد العقلية التي تُرَدُّ بها النصوص؛ لأنها بزعمهم تُعارض هذه القواعد، وأنَّ هذه القواعد موازين يوزَن بها الوحي والنص، وأن كل نصٍ عارضها أو ناقضها فهو مردود، مع أنَّنا نعلم علمًا جازمًا -أيها الإخوان- أنَّ الوحي لا يُمكن أن يُعارض العقل الصحيح، وأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- جاؤوا بمَحَارات العقول ولم يأتوا بمُحالات العقول؛ نعم، يأتون بأشياء لا تُدركها العقول، ولا تصل إليها وتتوقَّف فيها، لكن لا يمكن أن يأتي الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام بأمرٍ- تُنكره العقول، وقد قيل لأعرابيٍ على فطرته وسجيَّته، آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم، فقيل له: بأي شيءٍ عرفت أنَّه رسول الله؟ فقال على البديهة: "ما أمر بشيء فقال العقل ليته نهى عنه، وما نهى عن شيءٍ فقال العقل ليته أمر به".

فهل بلغ أولئك من المشتغلين بتلك العلوم مَبْلغ هذا الأعرابي بهداية الله -عز وجل- له، وما وصل إليه من هده النتيجة التي تعبوا في الوصول إليها؟!

ولذلك كان الواحد من هؤلاء ممَّن مَنَّ الله -عز وجل- عليه بالتوبة بعد طوافٍ طويل في دراسة تلك المناهج، كان يقول: "أموت على عقيدة العجائز، أموت على عقيدة أمي، على عقيدة عجائز نيسابور"، المقصود أنَّ العجائز على الفطرة، فهي لا تعرف شيئًا عن تلك العلوم، ولا زلت أذكر قول تلك المرأة التي رأت الرازي وهو الفَخر المعروف، رأته يمر ومعه كوكبة عظيمة جدًا من تلامذته، فتعجَّبت من هذا المشهد وقالت: "من هذا؟"، فالتفت إليها واحدٌ منهم وقال: "هذا الذي يعرف على وجود الله ألف دليل"، لاحظوا: على وجود الله، وهل وجود الله يحتاج إلى ألف دليل؟! أتعبَ نفسه في أمرٍ مُقَرَّرٌ في الفطر، فقالت هذه المرأة على البديهة: "لو لم يكن في قلبه ألف شكٍ لما عرف على وجود الله ألف دليل". وصدقت!

الجارية الأعجمية التي كانت ترعى تلك الغنم عند أُحُد، لما ضربها سيدها وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُتَنَدِّمًا على تلك اللَّطمة التي صكَّها بها وأراد أن يُعتِقها، وأوقفها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: (**أين الله؟**)، فأشارت بيدها، وقال لها: (**من أنا؟**)، فقالت: "رسول الله". وهي جارية أعجميَّة ترعى الغنم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**أعتِقها فإنها مؤمنة**)..

فكم يُتعب هؤلاء أنفسهم وراء سرابٍ لا طائل تحته، ولهذا يقول الإمام أحمد -رحمه الله-: "لا يخلو من نظر في الكلام إلا تجَهَّم".

والعلوم السيئة والفاسدة والضارة كثيرٌ جدًا، ومن ذلك العلوم التي دَوَّنها الصوفية مِن التَّفسيرات الإشاريَّة، فإنَّ عامَّتها ضلال وانحراف، وكثيرٌ منها كفرٌ محض. وكذلك أيضًا تلك العلوم والمُصَنَّفات التي صَنَّفها طوائف الباطنية، فإنَّ التشاغل بها صدٌّ عن سبيل الله عز وجل وعمىً في البصائر وإزاغة للقلوب.

ومن العلوم الضارة -أيُّها الإخوان- أيضًا التي وصفت ما يقع لبعض طلاب العلم الذين لم يهتدوا إلى لُباب العلوم وما ينفع منها فيشتغل بتحصيله، فيكون الواحد كالذباب يقع على المواضع القذرة، فتجد هذا الإنسان لا يقع في الكتب أو في كلام أهل العلم إلا على مواطن الزَّلل والأخطاء والعورات، فيتصيَّد ذلك، ثم أيضًا لربَّما كان هذا الإنسان يحفظ كلام أهل العلم في بعضهم، فإنَّ أهل العلم لربما وقع بينهم شيء من المغايرة، ولربما وقعت بينهم مُنافرات عبر القرون، فيجد مثالًا هاهنا ومثالًا هاهنا، فهذا العالِم يقول في أخيه كذا وكذا من العبارات التي لا تليق، والآخر يردُّ عليه بالمثل، ولربما كان ذلك عنوانًا لكتاب، فيبحث عن هذا الكتاب ويتشاغل بجمع هذه الأشياء وبحفظها، ويُرَدِّدها في المجالس، فهذا لم يوفَّق، لا يعرف من العلم إلَّا هذا!

وقد جاء ذمُّ ذلك عن جماعة من السلف كالإمام مالك وابن عبد البَرّ وطائفة، فمن لم يحفظ من أخبارهم إلَّا ما بَدَر من بعضهم في بعض المواقف بسبب حسد أو غضب أو شهوة دون العناية بفضائلهم ومناقبهم وعلومهم النافعة، فإنه يُحرم التوفيق ويحيد بهذا عن الطَّريق، كما قال الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله-.

ومن هذه العلوم التي تضر في الغالب تلك الإسرائيليات الجديدة التي وَفَدت على هذه الأمة في هذه القرون المتأخرة في وقت الانبهار بالحضارة الغربية، فصار الناشئ ينشأ في بعض الأحيان يتتلمذ على كتب مترجمة تتحدَّث عن التربية والأخلاق، وتُوصِّف النَّفْس الإنسانية بِعِللها وأدوائها وعلاجها، وأنَّى هؤلاء أن يعرفوا حقيقة النفس، والله -عز وجل- هو الذى خلقها ويعلم خفاياها؟!

ولربما كان الواحد منها -أيها الاخوان- لا يحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا واحدًا ولم يقرأ كتابًا واحدًا في العلم، ولم يثنِ ركبته في مجلس واحد، وإذا سمعته لربما يتفلسف: "يقول فلان ويقول فلان" من الأعاجم، ممن أعطاهم الله عُجمة القلب وعُجمة اللسان، فننقل كلامهم ونستشهد به، لا في مقام الإلزام لقومهم من باب أنَّا نَدِينُهم من ألسنتهم ومن أقوال مفكّريهم، وإنما في باب الاحتجاج وتقرير قضايا الآداب والأخلاق وما إلى ذلك من الأمور المتعلقة بإصلاح المجتمع، أو إصلاح النفس، وإصلاح العمل، نتحدث وننقل أقوالهم وعباراتهم من غير رويَّة ولا تفكير!

الإسرائيليات القديمة بيَّن العلماء حُكمها، وضبط النبي صلى الله عليه وسلم ما يُقبل منها وما لا يُقبل، فهي على ثلاثة أقسام: ما وافق ما عندنا قبِلناه، وما خالفه كذَّبناه، وما لم يأتِ معه ما يصدّقه أو يكذّبه نتوقَّف فيه.

وأما هذه الإسرائيليات الجديدة فكثير منها يلتبِس على الناس، ويتعلمها أُناسٌ ليس لهم قدم راسخة في العلوم الشرعية فيميّزوا الدَّخيل من الأصيل، فيلتبِس الأمر وتقعُ اللَّوْثات في هذه

الدراسات التي تُدرس وتُتلقَّى عن أولئك المنحرفين الضَّالين المُضِلّين، مع أن الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها، لكن إذا تخبُّطهم في عمايا، ويرجمون بالغيب من مكان بعيد، فما حاجتنا -أيها الإخوة- إلى كلامهم والاستشهاد بعباراتهم في قضايا جلَّاها الله عز وجل وجلَّاها رسوله صلى الله عليه وسلم وعبارات السلف فيها قوية وواضحة وكثيرة؟!

الثالث من هذه العلوم التي ذمها الله عز وجل في القرآن: **هي العلوم الدُّنيوية التي تُورِث صاحبها نَشْوَةً ورفعة وعلوًا وتكبرًا على ما جاء به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.**

العلوم الدنيوية مطلوبة، وتقوم بها عمارة الحياة مع التزام شرع الله عز وجل، ولا يمكن للأمة أن تقوم وتقوى إلَّا بالأخذ بأسباب القوة المادية، فتستطيع أن تُعارك الأمم وأن تزاحمها بالأكتاف وأن تتفوَّق عليها، إما الإخلاد إلى الجهل وإن كان الناس يتديَّنون في ظاهرهم فلا شك أنه مخالف لأمر الله -عز وجل-؛ لأن الله أمر بالأخذ بأسباب القوة، القوة بنوعيها، كما قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

فيعلمهم الصلاة في الجماعة في حال التِحام الصفوف والمواجهة العسكرية، يعلمهم الصلاة في جماعة والارتباط بالله تبارك وتعالى مع الأخذ بالسلاح والحذر، لا يتَّكلوا على أنهم من أولياء

الله عز وجل وأنهم أهل طاعته وأنهم في تقرُّب إليه في أعلى حالات التَّقرب وصوره وهو السجود؛ فتقف طائفة أخرى تحرُس هؤلاء الساجدين.

وكذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالأخذ بالأسباب مطلوب ولا ينكره من يعرف ما يخرج من رأسه أيها الإخوان.

لكنَّ الذي ذمَّه اللهُ عز وجل هو تلك العلوم الدنيوية التي لم تدلَّ أصحابها على الله عز وجل، واتّباع الرسل عليهم الصلاة والسلام، بل أَوْرَثَتهم انْتِفَاشةً وعُجبًا وغرورًا واكتفاءً بما عندهم من هذه العلوم، كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، وكذلك في قوله تبارك وتعالى عنهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، فهذا ذكره في موضع الذم لهؤلاء الناس الذين عرفوا ظاهرًا من الحياة الدنيا.

وهذا العلم الضَّار السَّيء هو الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث زيد بن أرقم كما أخرج مسلم في صحيحه: (**اللهم إنِّي أعوذ بك من علمٍ لا ينفع**)، وفي حديث جابر الذي مضى شطره: (**وأعوذ بك من علمٍ لا ينفع**)، وفي لفظ على سبيل الأمر لهذه الأمة: (**وتعوَّذوا من علم لا ينفع**).

الرابع مما يُذمُّ به العلم في كتاب الله عز وجل: أن **ذلك يكون في حال التعمُّق الزائد فيه والخروج عن الحدّ الذي ينبغي أن يُوقَف عنده**، فإذا أفضى بالناس إلى أمور من المبالغة والتَّعمُّق في أمور لا حاجة لهم بها فإن ذلك يكون مذمومًا.

ومن ذلك دراسة علم النجوم أعني الشق الآخر غير الذي ذكرت أولًا، وهو علم التسيير، معرفة الجهات وما إلى ذلك، هذا علم صحيح ولكن التعمق في دراسات علم النجوم أمر مذموم، وقد ذمَّه السلف –رضي الله تعالى عنهم–.

وهكذا التَّوسُّع في بعض العلوم زيادةً على القَدْر الذي يحتاج إليه كأن يتعمَّق الإنسان في دراسة علوم النَّسب على القدر الذي يُحتاج إليه، فيشتغل به عمَّا هو أولى منه فينقطع في دراسة مثل هذه الأشياء، فهذه أمور إنما يُحتاج إلى قَدْرٍ منها، أما التَّعمُّق الزائد فيها فلا حاجة إليه.

وقد كره الامام أحمد التعمق الزائد في معرفة دقائق العربية وغريب كلام العرب، أقول القدر الزائد والتعمق فيه، وكان ينهى أبو عُبيد القاسم بن سلَّام –رحمه الله– عن ذلك؛ والسبب أنَّه يشغله عما هو أهم من المطلوبات التي هو في حاجة إلى تحصيلها.

العلوم النافعة

وإذا عرفنا أنَّ من العلوم ما هو ضارٌّ ومنها ما هو نافع، فنقول: أفضل العلوم النافعة هي تلك العلوم التي جاءت في الكتاب والسنة؛ **العلم بالله عز وجل، بأسمائه وصفاته وأفعاله،** الذي يُورِث العبد تعظيمًا للمعبود وإجلالًا وخشية وتُقى -كما سيأتي-.

والعلم بمعاني كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن ذلك يُسْتَشرَح به الطريق إلى الله عز وجل، وهي طريقٌ مَبْنَاها على العلم، ولا يمكن للجاهل أن يسلك فيها لأن الله عز وجل لا يُعبَد إلَّا بما شرع؛ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، فالجاهل يخبِط خَبْطَ عَشْوَاء، ويفنى عمره ويتعب ويشقى في بدع وضلالات لا تزيده من الله عز وجل إلَّا بُعدًا.

فلا بد من دراسة علوم الكتاب والسنة، **وبها أيضًا تُعرَف الدَّار التي يصل إليها العبد** وما فيها من النعيم المقيم أو العذاب الأليم، فيكون ذلك حثًّا له على سلوك هذا الطريق، وترغيبًا فيه وتنشيطًا للسالكين.

وهكذا **علوم الحلال والحرام والأمر والنهي والفقه** الذي يُبنى عليه العمل.

وكذا ما جاء عن السلف الصالح -رضي الله تعالى عنهم-؛ لأننا إنما نفهم الكتاب والسنة بضابطٍ واضح جَلِيّ وهو أن نفهمها على فهم السلف الصالح -رضي الله تعالى عنهم-، وأن

نعرف مواطن الإجماع ومواطن الخلاف لئلَّا نقع في أمورٍ قبيحة كخرق الإجماع ومخالفته، ولذلك لا يمكن لأحد أن يكون متحقِّقًا بالعلم إلا بعد أن يعرف مواطن الإجماع ومواطن الخلاف؛ لئلَّا يأتي بالعجائب، ولئلَّا يقول قولًا لم يُسبق إليه، فالنظر في كلام السلف -رضي الله تعالى عنهم- مطلوب، ولهذا يقول الأوزاعي -رحمه الله-: "العلم ما جاء به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فما كان غير ذلك فليس بعلم"، وكذا قال الإمام أحمد -رحمه الله-.

إذًا هذه هي العلوم التي تنفع العبد، وهي رأس العلوم، وهي التي تُورِثه الخشية كما قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]، وليس المراد بذلك العلماء بالعلوم الطبيعية فإن هذه العلوم لا تورث خشية، وإنما المقصود به العلماء بالله عز وجل، والعلماء بأمره ونهيه وشرائعه وحلاله وحرامه وحدوده، والعلماء بالدار التي يصير إليها الخلق وما فيها من النعيم المُقيم والعذاب الأليم؛ فإنَّ ذلك لا شك أنَّه يَحْدُوهم حَدْوًا إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى الخوف منه وتعظيمه وإجلاله ومراقبة حدوده.

فمَنْ جمع هذه العلوم فهو من العلماء الرَّبانيين، العلماء بالله، العلماء بأمره، وهم أكمل ممن قصر علمه على العلم بالله دون العلم بأمره وبالعكس؛ لأن الإنسان قد يكون عالمًا بالله يعرف من صفات الكمال والجلال ما يورثه هيبة وخشية وتعظيمًا لربه ومَليكِه جلَّ جلاله، ولكن إذا سألته عن الحلال والحرام فهو بمنأى عنه.

وطائفة أخرى تحفظ الأدلة وتعرف الأحكام وتُجيد الفُتيا وتُدرك الحلال من الحرام، ولكنها لا تعرف الله عز وجل المعرفة الصحيحة، إما لأنهم أعرضوا عن هذا أصلًا فاشتغلوا بعلوم الحلال والحرام فحسب، وإما لأنهم لم يسلكوا الطريق التي تُوصلهم إلى تعظيم الله عز وجل، فاشتغلوا بدراسة هذه الأمور التي يُمكن أن توصِل إلى تعظيم الله، اشتغلوا بها من منحىً آخر؛ كالذي يدرس الأسماء والصفات فقط ليناقش فيها أقوال الفِرق، والرَّد على هذه الفرقة ومناقشتها وحججها وأدلتها.

فمثل هذا لا شكَّ أنه يُحتاج إليه لبيان الحق وإقراره ورد الباطل، ولكن لا يجوز بحالٍ من الأحوال أن نقِف عنده، هذا يُحتاج إليه لطائفة من الأمة تقوم بهذا الفرض وهو الذَّب عن العقيدة ونُصرتها وكسر خصومها، ولكن أن يبقى هذا هو منهج الدراسة فإذا جاء باب الأسماء والصفات بدأنا نشتغل بدراسة الفرق وأقوال الطوائف من أهل التأويل والتمثيل والتكييف والتعطيل، ثم لا نتحدَّث عن معاني هذه الأسماء والصفات وعن مدلولاتها وعن آثارها! فإن ذلك لاشك أنَّه جناية عظمى على هذه النصوص، وتفريط عظيم؛ حيث إن الله عز وجل إنما أخبرنا عن أسمائه وصفاته من أجل أن نتقرَّب إليه ومن أن نتعبَّده بها.

فالعلماء إمَّا أن يكون الواحد منهم عالمًا بالله أو عالمًا بأمر الله أو عالمًا بالآمرين، والكمال أن يكون العبد عالمًا بالله وعالمًا بأمر الله عز وجل.

هذا مع مراعاة بعض الأمور التي يجب أن تُراعى؛ كالاقتصار على القَدْر الذى يُحتاج إليه دون التَّعمُّق في هذه العلوم، قلنا مثلًا العلم بالله عز وجل والعلم بالحلال والحرام، نحن نتعلم معاني

الصفات والأسماء وآثار هذه الأسماء والصفات، لكن هناك أمور يجب أن نقف عندها لأن العقول لا تدرك ذلك، ولم يتعبَّدنا الله عز وجل بها، مثل: هل يخلو العرش من الله عز وجل إذا نزل إلى السماء الدنيا أم لا يخلو؛ من كلَّفنا بذلك؟ ومن طالبنا به؟ ومن سألنا عنه؟ ومن أذِن لنا أن نبحث هذا البحث ؟!

فنقول نؤمن أن الله عز وجل ينزل كما يليق بجلاله وعظمته، لكن نقف عند هذا الحد، فنتحرَّى في ثلث الليل الآخر تلك الساعة بالدعاء والابتهال إلى الله عز وجل والتَّضرُّع إليه، هذا هو المطلوب، أما أن نترك هذه القضية التي أخبرنا عنها الشارع ونشتغل: هل يخلو العرش أم لا يخلو العرش! فالشارع لم يخبرنا عن هذا النزول من أجل أن نشتغل بهذه القضية التي لا تَعنِينا، و(**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**).

هذا بالإضافة -أيها الإخوان- **على الاقتصار على بيان الحق بأقرب طريق دون التَّعمُّق والتَّكلُّف والتَّمحُّل** بالعبارات العسيرة الصعبة والمصطلحات الغامضة والأساليب المنطقيَّة التي يقرّر بها كثيرون علومهم التي دوَّنوها، سواءً في مصطلح الحديث أو في علوم اللغة العربية أو في أصول الفقه أو حتى في شروح الحديث أو حتى في تفسير القرآن، يقرّرون هذه الأمور بطرق عسيرة غثَّة، كلحم جمل غثٍّ على جبل وعرٍ، ليس سهلًا فيُرتقى ولا ممهَّدًا فيُنتَقل عنه!

فالمقصود أنَّ هذه الأمور لا حاجة لها، يُقرَّب العلم كما كان السلف -رضي الله عنهم- بعبارة قريبة سهلة واضحة تُجلِّي الحق من غير تعقيد. أما ما يلجأ إليه كثيرون فإن هذا لا شكَّ أنه أورث العلم كَدَرًا، وصار في نظر كثير من الناس بعيد المنال صعبًا، مع أنَّ العلم ليس كذلك؛

يحتاج إلى همة وصبر وصفاء ذهن، ومع الليالي والأيام يحصّله الإنسان، ومن بذل وقته في مطلوب حصَّله ولو بعد حين -بإذن الله عز وجل-.

فالمقصود أيها الإخوان أن هؤلاء يُصعِّبون العلوم، أعطيكم مثلًا على ذلك: الشاطبي -رحمه الله- يذكر صورًا مُستهجنة من صنيعهم في العلم، إذا سُئِل الواحد منهم عن القمر، القمر معروف ولا يخفى على أحد، ويكفي أن يقال: "هو هذا الذي نشاهده ليلًا"، فيقولون: "القمر هو ذلك الجِرم المَحْويَ في الجرم الحاوي"، ثم يذكرون صفاته أنه: صَقِيلٌ عاكسٌ للضوء مُستدير، وما إلى ذلك من أوصافه التي يذكرون!

إذا قلت: "القمر هذا الذي نشاهده في الليل" كفى وحصل المقصود، وإذا قلت: "الهواء هو هذا الذي نَسْتَنْشِقه" كفى، وإذا قلت: "الماء هو هذا الذي نشربه" كفى، ولا حاجة لتعريفه بأمور لا تزيد إلَّا تعقيدًا وغموضًا، ولا شكَّ أن هذا نقص وقصور وإن ظنَّ أصحابه أنه من الكمالات.

وليس العلم -أيها الإخوان- بكثرة الكلام وكثرة الرواية وكثره المحفوظات، إنما العلم هو ما وَقَر في قلب الإنسان من المعارف الصحيحة التي تُورثه يقينًا وعملًا وخشيةً من الله عز وجل وتعظيمًا له، قد يكون الإنسان كثير الكلام ولكنَّ كلامه ليس تحته طائل، أحيانًا لربما تسمع الخطبة كاملة طويلة جدًا، أو المحاضرة كاملة، وتستطيع أن تختصرها بأسطُرٍ ليس تحتها كثيرٌ من العلم! فمثل هذا لا شك أنه مذموم.

وأما العلم الصحيح فإنه لُباب يصعب عليك أن تحذف جملة واحدة منه، فهو لبن خالص سائغ للشاربين، وقد أُعطي النبي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصارًا، وكانت خطبه صلى الله عليه وسلم قَصْدًا، وكان يحدِّث حديثًا لو عدَّه العادُّ لأحصاه، وقد صحَّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**الحياء والعِيّ شُعبتان من الإيمان**)، العِيّ يعنى ضعف الإبانة في الكلام، هما شُعبتان من الإيمان، (**والبَذَاء والبيان شعبتان من النفاق**)؛ الذي يلوك بلسانه ويتخلَّل كما تتخلَّل البقرة هذا لا شك أنه مذموم، والله عز وجل لا يحب هذه الصفة.

فيتكلم الإنسان بكلام جَزْلٍ واضح يحصلُ به المطلوب، ويبيّن به الحق، من غير تعقيد ولا لجوء إلى العبارات التي تحتاج إلى فكٍّ بمراجعة كتب المصطلحات الفلسفية وغيرها! ودون أن يحتاج الإنسان إلى اللجوء إلى القواميس، لأن هذا الإنسان يعبّر بالعبارات النَّادرة والألفاظ الشَّاذَّة المهجورة التي لا يعرفها السَّامع؛ المقصود هو إيصال المعنى، فالمفتَرض أن تعبّر بالعبارات التي يفهمها الناس، أما أن تُحوِج القارئ أو السَّامع أن يصطحب معه قاموسًا من أجل أن يفسر هذه الكلمات المحشودة بين قوسين! فمثل ذلك لا شك أنه خلاف المقصود.

ولهذا يقول عون بن عبد الله -رحمه الله-: "ثلاثٌ من الإيمان؛ الحياء والعفاف والعي على اللسان لا على القلب ولا على العمل، وهُنَّ مما يَزِدن في الآخرة وينقصن من الدنيا".

وكان بعض السلف يقول: "إنْ كان الرَّجل ليجلس إلى القوم فيرون أنَّ به علَّة وما به علة، إنه لفقيه مسلَّم"؛ أي أنَّ كلامه قليل، إذا جلس في المجلس فهو أقل الناس تكلُّفًا وأقلهم كلامًا، والآخر يستهويهم بلسانه الأخَّاذ وفصاحته وبلاغته لكن من غير طائل، وإنما العبرة بالمعاني.

ولذلك لا يمكن أن يُحكَم على عِلم العالم بالكثرة أو القلة نظرًا لكثرة كلامه؛ وإنما يُحكم عليه بما عنده من معرفة حقائق الأمور والعلم الثَّابت الرَّاسخ المبنيّ على الأدلة الصحيحة. هذا هو العلم؛ فهو نورٌ يقذفه الله عز وجل بالقلب يُورِثه بصيرةً أعظم من بصر العين؛ فإنَّ البصيرة هي عَيْن القلب، فيميّز بين الأمور، وإذا وقعت الفتن كانت له مَحِجَّة واضحة وطريقًا يسلكه لا يختلط عليه الحق بالباطل.

والشاطبي –رحمه الله تعالى– يقسِّم العلم من هذه الحيثيَّة إلى ثلاثة أقسام، نحن نتحدَّث عن العلم النافع، الشاطبي يقول: "العلم ثلاثة أقسام:

- قسم هو من **صُلب العلم**، وهذا لا شكَّ أنه من أجَلِّ العلم؛ كالعلم بالله وأسمائه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكذلك الحلال والحرام، وكذلك ما يتعلَّق بتهذيب الأخلاق وتزكية النُّفوس وما إلى ذلك، فهذا من صُلب العلم.
- وقسم آخر هو من **مُلَح العلم** وليس من صُلبه، يُستفاد منه ولكنَّ العلم لا يتوقَّف عليه، فإنْ عُدِم عُدِم العلم، وذلك ككثير من الأشعار الرَّائقة اللطيفة ذات المعاني الجميلة والألفاظ المُستَعذَبة التي يريدها المحاضر والمتكلِّم أثناء كلامه، فهذه لا يُبنى

عليها أصل ولا حُكم، وإنما تُذكَر من باب الإفادة وزيادة النَّفع وتكثيره فقط، وكذلك أيضًا إيراد أقوال السَّلف –رضي الله تعالى عنهم– في الأمور التي لا يُبنى عليها حكم من مجرَّد كلامهم فيها، هناك أدلة من الكتاب والسنة، ولكن يُورَد في ذلك أقوال السَّلف لتنشيط النفوس وحثِّها على العمل بطاعة الله عز وجل مثلًا، فهذا كله من مُلَح العلم وهكذا.

أيضًا تكثير الأسانيد والطُّرق للحديث الواحد إذا كان هذا الحديث قد جاوز القَنْطَرة، حديث لا مَطعن فيه، وهو ثابت في الصَّحيحين، فما الحاجة لجمع طرقه والتَّكثُّر بذلك؟! فهذا من مُلَح العلم.

وكذلك ما يتناقله العلماء أو الرُّواة في كثيرٍ من الأحيان حين يروي الحديث يقول: "وقبض على لحيته"، ثم الآخر يروي عنه الحديث ويقبض على لحيته، فتجد الحديث مسلسلًا بعمل يعمله الرواة، فتتبُّع مثل هذه الأمور لا حاجة إليه ولا ينبني عليه عمل، وإنما هو من مُلَح العلم.

وكذلك أيضًا الحِكَم التي لم يصرّح الله عز وجل بها والتي مَبْنَاها على الظَّن والتَّخمين؛ ما الحكمة من رمي الجِمار؟ ما الحكمة من الوقوف بعرفة؟ ما الحكمة من ذبح الهَدْي؟ فهناك أمور دلَّ عليها الشَّارع، لا إشكال، لكن تتبُّع هذه الأمور؛ لماذا الصلاة بهذه الهيئة؟ الأمور التي لم يدلّ عليها دليل يعني حكمتها، لماذا الركوع بهذه الهيئة؟ ما الحكمة؟ لماذا نصلي العصر أربع ركعات ونصلي الفجر ركعتين؟ فتجد العلماء يتلمَّسون

حِكمًا، وهذه الحِكَم مبنيَّة على الظَّن، فهذا من مُلَح العلم، إذا كان هذا الظَّن له وجه، وأما إن كان ذلك من قَبِيل التَّكلُّفات فهو من العلم المذموم.

- وأما ما كان من القسم الثالث: **وهو ما كان خارجًا عن صُلب العلم وعن مُلح العلم** فهذا ما لا ينبني عليه عمل من سائر العلوم، أحيانًا تقرأ في بعض كتب الأصول فتتعب في دراسة مسألة وقراءة الكلام فيها، بأسلوب أحيانًا في غاية العُسر، ثم إذا أصابك الصُّداع في جمع أطراف هذه المسألة وجدت أن المؤلف يصرّح في النهاية أن هذه المسألة لا ينبني عليها عمل، وإنما المقصود كما يقولون: شَحْذُ الأذهان فقط! بعد هذا المشوار الطويل، ثم يقول المقصود شحذ الذهن! وهذا كثيرٌ في كثيرٍ من العلوم التي تُذكر فيها بعض المسائل التي لا ينبني عليها عمل.

ومن ذلك تكليف الكفَّار بفروع الشريعة؛ هل هم مُخَاطَبون بفروع الشريعة أم لا؟ عند من يقول أنه لا يترتَّب عليها أثر في الدنيا يكون ذلك ليس من صلب العلم، ولا من مُلَحه.

وكذلك الكلام في أصل اللغات؛ هل اللغات في أصلها توقِيفيَّة أو غير توقِيفيَّة؟ ما الحاجة لهذا وما الذي يترتَّب عليه؟ ما الذي ينبني عليه لا شيء؟

المُفَاضَلات؛ من أفضل الصالحون من البشر أم الملائكة عليهم الصلاة والسلام؟! فتجد كلامًا وخلافًا لا ينبني على دليل واضح، والله لم يكلّفنا بذلك، ولا يترتَّب عليه عمل، فهذا ليس من مُلَح العلم وليس من صُلبه.

وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استِحسانه دليلٌ شرعي، كما يقول الشاطبي في [الموافقات].

وبذلك نعرف أيها الإخوان أنَّ العلم النافع ما رجع إلى القِسمين؛ ما كان من صُلب العلم وما كان من مُلح العلم، وأعلاه ما كان من صُلب العلم، فلا ينبغي الاشتغال بملح العلم إذا كان ذلك يقطع العمر عن تحصيل لُبِّ العلم وصلبه، والعمر معلوم أنه قصير.

سمات العلم النافع

بعد ذلك أدخل في الكلام على سِمات هذا العلم الذي حدَّدنا زاويته وبيَّنا أطرافه، وأنه العلم الذي ينبني عليه عمل أو يُورِث خشية وتعظيمًا لله عز وجل.

فأقول: سِمات هذا العلم أيها الإخوان كثيرة جدًا، أكتفي بأشهرها وأوضحها وأهمها:

- فأوَّل ذلك: **أنه يُورِث الخشية**.

إذا أردت أن تعرف أنَّ هذا العلم نافعٌ أم غير نافعٍ فانظر إلى هذه القضية؛ أنه يُورِث خشية الله عز وجل، والله يقول قولًا فَصْلًا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: "كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار به جهلًا"، ويقول مسروق بن الأجدع: "كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلًا أن يُعجَب بعمله"، وكان بعض السلف يقول: "ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية"، وآخر يقول: "من خشي الله فهو عالم، ومن عصاه فهو جاهل"، كيف لا والله تبارك وتعالى يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾؛ فالذي يعمل السيئات ويعصي الله عز وجل يُوصَف بالجهل ولو كان من أعظم الناس تحصيلًا ومن أكثرهم حفظًا ورواية.

والسَّبب في ذلك أنَّ هذا العلم النافع يدلُّ على أمرين اثنين:

الأول: **أنه يدل صاحبه على المعبود**، فيعرف ربَّه وما يَسْتحِقَّه هذا الرب تبارك وتعالى من الأسماء الحسنى والصِّفات العُلَا والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبَّته ورجاءه والتَّوكل عليه، والرضا بقضائه والصبر على بلائه.

كما أنه يُورثه أمرًا آخر ويدله عليه: **وهو المعرفة بما يحبه هذا الرب جل جلاله**، وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات، والأعمال الظَّاهرة والباطنة والأقوال، فيُوجِب ذلك لمن علِمه المسارعة والمبادرة إلى تحصيل محابِّ الرَّب جل جلاله، والسَّعي في مرضاته والتَّقرب إليه، فيُسهر ليله ويُغني نهاره في تحصيل هذه المطلوبات التي جهِلها كثيرٌ من الخلق، وأعرضوا عنها، وإلا ما قيمة العلم أيها الإخوان؟!

إذا كان العامة أعظم خشيةً لله عز وجل من هذا العالِم أو من طالِب العلم هذا، فما الفائدة من هذا العلم وما الخير فيه؟!

فأقول إذًا: يجب أن يكون هذا العلم مُورِثًا ذلًا وانكسارًا للنَّفس وتواضعًا لله عز وجل وهيبة له وخشية وتعظيمًا.

وقد أحسن من قال:

العِلمُ ما أَكْسَبَ خَشْيَةَ العَلِيمِ ومَنْ خَلا منها جَاهلٌ مُليمُ

لأنَّه مِيراثُ الأَنْبِيَاءِ ولم يَنَلْهُ غَيْرُ الأَتْقِيَاءِ

لِذَاكَ قِيلَ: العِلمُ يدعو العَمَلَ إِنْ يُلفِهِ قرَّ وإلا ارْتَحَلا

فهو كما قال الحسن البصرى –رحمه الله–: "العلم عِلمان؛ علم اللسان فذاك حُجَّة الله على ابن آدم، وعلمٌ في القلب فذاك العلم النافع"، ثم قال: "فالعلم النافع هو ما باشَرَ القلب فأَوْقَرَ فيه معرفة الله وعظمته وخشيته وإجلاله وتعظيمه ومحبته، ومتى سَكَنت هذه الأشياء في القلب خَشَع فخشعت الجوارح تَبَعًا له".

قيل لمعروف الكرخي –وهو من العُبَّاد الصالحين–: "ما الذي هيَّجك على العبادة؟"؛ القبر؟ الموت؟ النار؟ الدار الآخرة؟ الحساب؟ الموقف؟ الجنة؟ ما الذي استفزَّك إلى هذا التشمير في طاعة الله عز وجل؟ فبماذا أجاب؟ قال: "إن مَلِكًا هذا كلُّه بيده إذا كان بينك وبينه معرفةً كفاك هذا كله".

فالعلم أيها الإخوان هو الذي يعرّفك بهذا المعبود سبحانه وتعالى، فتَأْنَس به وتستحي منه، وتَلْتَذُّ بمناجاته، وإذا خَلَوْتَ الدَّهر يومًا فلا تجترئ على معصيته تبارك وتعالى، ولا يكون هذا الرب تبارك وتعالى هو أهون الناظرين إليك.

الإنسان قد يستحي من الناس أو يهاب الناس فلا يفعل ما يَشِين أمام ناظرهم، ولكنَّه إذا خَلَا فعل أمورًا قبيحة لا تليقُ بأحدٍ عرف أنَّ الله يراه وأنه يراقبه.

ولهذا قالت طائفة من الصحابة –رضي الله عنهم– أنَّ أوَّل علم يُرفع من الناس الخشوع، ويقول ابن مسعود: "إن أقوامًا يقرأون القرآن لا يُجاوز تَرَاقِيَهم، ولكنَّه إذا وقع في القلب فَرَسَخ فيه نَفَع".

فالشأن كله –أيها الإخوة– في أنَّ العبد يستدلُّ بالعلم على ربه فيعرفه، فإن لم يُورِثه ذلك فلا حاجة لهذا العلم ولا لقطع الزمان فيه، ولهذا يقول سفيان الثوري –رحمه الله–: "كان يُقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله يخشى الله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بالله عالم بأمر الله يخشى الله فذاك العالم الكامل، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله لا يخشى الله فذلك العالم الفاجر"، وقد سبق ما يشير إلى هذا المعنى.

وكان معروف الكرخي فيما نقل عنه الإمام أحمد –رحمه الله– يقول: "أصلُ العلم خشية الله سبحانه وتعالى، هذا أصل العلم، ومن فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي صلى الله عليه وسلم، وصار علمه وبالًا وحجَّة عليه، فلم ينتفع به لأنه لم يخشع قلبه ولم تشبع نفسه من الدنيا، بل ازداد عليها حرصًا ولها طلبًا، ولم يُسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر الله تبارك وتعالى، ولأنه لم يجتنِب مَسَاخِط الرب جلَّ جلاله".

ويكفي أيها الإخوان أنَّ الله عز وجل ذمَّ أهل الكتاب بسبب قسوة قلوبهم، ونهانا أن نتشبَّه بهم في ذلك، فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وبيَّن سبب هذه القسوة التي وقعت لهؤلاء وذلك بقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٢]، فأخبر أن سبب قسوة هذه القلوب كان عقوبة لهم جزاءً وِفاقًا على نقض الميثاق وتحريف الكلم عن مواضعه، سواءً كان بتحريف الألفاظ أو كان بتحريف المعاني.

فالذي يغيّر ويبدّل ويُضلِّل الناس بالفُتيا ويصوِّر لهم الباطل حقًا، ويصور لهم الحق باطلًا، ويدلس عليهم ويكتم الحق الذي أوجب الله عز وجل عليه أن يشهد به ويكون أصمًا أبكمًا في حال تكون الأمة أحوج ما تكون إليه فيها، هذا عِلمه لم ينفعه، وعِلمه حُجَّة عليه إلا أن يتداركه الله عز وجل برحمة منه وتوبة.

ومثل هؤلاء كما يقول الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: يذمُّون من رزقه الله عز وجل علمًا يخشع به قلبه، وتدمع به عينه، ولربما عَادُوه ولَمَزُوه وانتقصوه بأنه من القُصَّاص والوعَّاظ، وهم أهل الحقائق والمعارف والعلوم الراسخة؛ فالذي يرِقُّ ويزهد في الدنيا ويخشع وينكسِر عندهم هذا واعظ وليس بعالم، وما علموا أن قسوة القلب صفة من صفات بني إسرائيل التي أوجبت لهم اللعن والطّرد من رحمة الله تبارك وتعالى، وقد صدق عبد الأعلى التميمي -رحمه الله- بقوله: "من أُوتي من العلم ما لا يُبكِيه فخَلِيقٌ ألَّا يكون أُوتي علمًا ينفعه؛ لأن الله عز وجل نَعَت العلماء وقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وكان مطر الورَّاق يقول في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، قال: "بَلَغَنا أنَّ الحكمة خشية الله والعلم به"، وكذا قال يحيى بن أبي كثير -رحمه الله-: "العالِم مَنْ خشي الله، وخشية الله الوَرَع".

فإذًا أول سِمة من سِماته هي أنه يُورِث الخشية والتعظيم للمعبود جل جلاله، بخلاف غير النافع فإنه يُكسِب صاحبه زهوًا وفخرًا وخيلاء وطلبًا للعلو والرفعة في الدنيا والتنافس على حطامها ويزيده مباهاة للعلماء ومُماراة للسُّفهاء، ويطلب وجوه النَّاس وأن تنصرف إليه، فهذا لا شكّ أنه بخلاف ما وصف الله عز وجل من صفة العالِمين العلوم النافعة.

يقول ابن مسعود –رضي الله عنه–: "من طلب العلم لأربع دخل النار؛ ليُباهي به العلماء، أو ليُمَاري به السُّفهاء، أو ليَصرِف وجوه النَّاس إليه، أو ليأخذ به من الأمراء". وكان يقال: "تعلَّموا العلم وانتفِعوا به، ولا تعلَّموه لتتجمَّلوا به؛ فإنه يُوشِك إن طَالَ بكم عُمُر أن يتجمَّل ذو العلم بعلمه كما يتجمَّل ذو البزَّة ببزَّته"؛ يعني لا يعمل هو بالعلم ولا يدرس ولا ينفع الناس ولكنه اتَّخذ هذا العلم حِلية يتزيَّن بها في صدور المجالس وفي المناسبات، فيُقدَّم ويُبجَّل ويُجَلُّ ويُعظَّم، فيحصل له بذلك من تحصيل رغباته شيءٌ كثير لو بُذلت به الأموال لكان غير مكافئ له، صار العلم بزَّة وزينة وحِلية عند كثير من هؤلاء النَّاس، والناس لا ينتفعِون مِن علمه بشيء!

- الثاني من سِمات هذا العلم النافع: **أنه يورث العمل**.

وهل يُراد العلم أيها الإخوان إلا للعمل؟

كما قال ابن مسعود –رضي الله عنه–: "تعلَّموا تعلَّموا، فإذا علِمتم فاعملوا"، وكان الشعبي يقول: "إنما كان يُطلب هذا العلم مِن قِبَل من اجتمعت فيه خصلتان: العقل والنُّسُك"؛ يعني العبادة، عاقلٌ وعنده تعبُّد، "فإن كان ناسكًا ولم يكن عاقلًا، قال هذا أمر لا يناله إلا العقلاء

فلم يطلبه، فإن كان عاقلًا ولم يكن ناسكًا قال: هذا أمرٌ لا يناله إلا النُّسَّاك فلم يطلبه"، يقول الشعبي: "ولقد رَهَبتُ أن يكون يطلبه اليوم من ليست فيه واحدة منهما"؛ لا عقلٌ ولا نُسُك، نسأل الله العافية.

والحسن يقول: "كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يُرى ذلك في بَصَرِه وتَخشُّعِه ولسانه ويده وصلاته وزُهده"، ولهذا كانوا إذا جاء الرَّاوي أو العالِم ينظرون إلى صلاته أولًا، فإن وجدوا صلاة يتَّبع فيها السُّنة ويُقيم أركانها وشروطها وواجباتها قَبِلوا منه واستمعوا إليه، وإن وجدوه يصلّي صلاة كيفما اتَّفق لم يأخذوا عنه ولم يستمِعوا إلى كلامه، فالعلم إن كان من غير عمل لا خير فيه؛ العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلَّا ارْتَحَل..

يقول الزُّهري: "إن للعلم غَوَائِل، فمِن غَوَائِله أن يُترَك العلم به حتى يذهب"، ويكون ذلك سببًا لنِسيانه، وهذا أبو قلابة يقول لتلميذه أيوب السختياني: "إذا أَحْدَثَ الله لك علمًا فأحدِث له عبادة"، يُربُّون تلاميذهم على هذا، لا الاستكثار من المسائل وحِفظ الأدلة، وإنما العمل بهذا العلم، يقول: "ولا يكون همُّك أن تُحدِّث به".

والثوري يُسأل، هذا السؤال الذي لطالما سمعناه: كيف نجمع بين العلم والعمل؟ "أيهما أحب إليك؛ العلم أو العمل؟ فقال: إنما يُراد العلم للعمل"؛ فلا تَدَع طلب العلم للعمل ولا تدع العمل لطلب العلم، اعمل وتعلَّم، وتعلَّم واعمل بما عَلِمت، أما أن يكون طالب العلم جافًا قليل العمل مُعرِضًا غافلًا، فهذا أمر لا يليق، فكانوا يتعلَّمون ويعملون بما علِموا.

ولهذا كان الإمام أحمد –رحمه الله تعالى– يقول: "ما كتبت حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا وقد عمِلتُ به"، وكم يحفظ الإمام أحمد من الأحاديث؟! نحن نحفظ أحاديث قليلة، لكن اسأل نفسك: هل عملت بها جميعًا؟ الجواب: لا، إلا من رحِم اللهُ عز وجل..!

فهؤلاء يحفظون أعدادًا كبيرة من الأحاديث، مِئات الألوف، ويعملون بها، يقول: "حتى مرَّ بي الحديث أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم احْتَجَم وأعطى أبا طيبة الحجَّام دينارًا، فاحتجمتُ وأعطيتُ الحجَّام دينارًا"، إلى هذا الحد!

وبلغه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم اختفى ثلاثة أيام في الغار، فاختفى الإمام أحمد ثلاثة أيام، وبلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم تَسَرَّى، فتسرَّى الإمام أحمد وطلب من المروذي أن يشتري له جارية ليقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم وما به حب النساء.

وهذا الثوري يقول: "العلماء إذا عَلِموا عَمِلوا، فإذا عَمِلوا شُغِلوا، فإذا شُغِلوا فُقِدوا، فإذا فُقِدوا طُلِبوا، وإذا طُلبوا هربوا"، وهذا حبيب القيسي يقول: "كان يُقال: ما أحسن الإيمان ويزيّنه العلم، وما أحسن العلم ويزيّنه العمل، وما أحسن العمل ويزيّنه الرِّفق، وما أُضيف شيء إلى شيء مثل حِلم إلى عِلم".

وجاء رجل إلى الأمام أحمد ليلة فبات عنده، فالإمام أحمد لما رأى هذا من طلاب العلم وضع عنده إناءً فيه ماء من أجل أنه إذا قام من الليل يتوضَّأ ثم يصلي ما شاء الله له أن يصلي من الليل، فلما جاءه الإمام أحمد في وقت صلاة الفجر وجد أن الرجل نائم، وأن الماء لم يتغير، فتعجَّب الإمام أحمد وقال: "سبحان الله رجل يطلب العلم ولا يكون له وِرد بالليل!!".

ويقول ابن عيينة: "إذا كان نهاري نهارَ سَفِيه، وليلي ليلَ جاهل، فما أصنع بالعلم الذي كَتَبتُ؟!"، قد تجد الإنسان يشتغل بالعلم أو يدرس في كلية شرعية، وإذا نظرت في واقعه في النهار وفي الليل فهو في غاية السَّفه؛ إما لاشتغاله بالأمور المحرَّمة أو لاشتغاله بالأمور المباحة على وجه مُبَالغ فيه، كإدمان التَّنزُّه والذهاب هنا وهناك، من الأمور التي لا تعود عليه بنفع في الدنيا ولا بنفع في الآخرة.

وما أحسن قول القائل:

اعْمَل بِعِلمِكَ تَغْنَم أيُّها الرَّجُلُ لا ينفع العلم إن لم يحسُنِ العَمَلُ

والعلم زَيْنٌ وتقوى الله زِينته والمُتَّقُون لهم في عِلمهم شُغلُ

وحُجَّةُ الله يا ذا العِلم بالغةٌ لا المكرُ ينفع فيها لا ولا الحِيَلُ

تعلَّمِ العِلم واعمل ما استطعت به لا يُلهينَّكَ عنه اللهو والجدلُ

وعَلِّم النَّاس واقصِد نفعهم أبدًا إيَّاك إيَّاك أن يَعْتَادَكَ الملل

وعِظ أخاكَ برِفقٍ عند زَلَّتِهِ فالرفق يَعطِفِ مَن يَعتَادُهُ الزَّلَلُ

وإن تكُن بين قوم لا خَلاقَ لهم فأمُر عليهم بمعروفٍ إذا جهلوا

فإن عَصَوك فراجعهم بلا ضجرٍ واصبر وصابر ولا يَحْزُنكَ ما فعلوا

فكُلُّ شاةٍ برِجْلَيْهَا مُعلَّقةٌ عليكَ نفسك إن جَارُوا وإن عَدَلوا

وكذلك أيضًا أيها الإخوان؛ الذي لم ينتفِع بعلمه من هذه الحيثيَّة تجد أنه قد أعرض عن العمل الذي هو بصدده وطالبه الشَّارع به وكلَّفه به، واشتغل بأمر آخر لا يعود عليه بنفع؛ اشتغل بالجدل والقِيل والقال والخصومات، يجلس الواحد ليلة كاملة يردِّد فيها كلامًا مملولًا، ولو جمعته لربَّما كفى به دقائق أن يُفهم، ولكنهم يتجادلون من غير خلفيَّة علميَّة، ومن غير معرفة بطرق الاستدلال، وقد سمعتُ أنَّ بعض الشباب لربما جلس إلى أذان الفجر ليلة كاملة يناقشون هل الاستياك باليد اليسرى أم باليد اليمنى!

فهؤلاء ثقُل عليهم العمل فانشغلوا بالجدل، بالقيل والقال، كان الأحرى بهم أن يصلِوا ليلهم وأن يتقرَّبوا إلى الله عز وجل، ولكنَّه لما ثقُل عليه ذلك اشتغلوا بمثل هذه الأمور..

تُرى كم تحتاج هذه المسألة من مثل هؤلاء الشباب وهم طلاب في كلية، كم تحتاج هذه المسألة في عرض أدلتها ومناقشة كلام العلماء فيها؟ عشر دقائق؟ ربع ساعة؟ وقد ذكرت لكم أنَّ العلم أيها الإخوان يبيّن بطريق سهلة قريبة المأخذ دون حاجة إلى تكثير للقول وتَمطِيط وتطويل للكلام.

وقد جاء من حديث أبي أمامة مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**ما ضلَّ قوم بعد هُدى إلا أُوتوا الجَدَل**)، ثم قرأ: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾

[الإسراء: ٥٨].

ولهذا يقول بعض السلف كمعروف الكرخي: "إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرًا أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل".

قيل لمالك: الرجل يكون عالمًا بالسُّنن يُجادل عنها؟ قال: "لا، ولكن يُخبِر بالسُّنة، فإن قُبِل منه وإلا سكت"، وكان يقول: "المِراء والجِدال في العلم يذهب بنور العلم"، ويقول: "والمِراء في العلم يُقسِّي القلب ويورث الضِّغن".

وهذا إبراهيم النخعي من علماء التابعين يقول: "ما خاصمتُ قطُّ"، ويقول عبد الكريم الجزري: "ما خاصم ورِعٌ قطّ"، ويقول عمر بن عبد العزيز: "إذا سمعتَ المِراء فأقصِر"؛ المراء هو الجدل العقيم الذي لا يُورِث نتيجة، فكل واحد من المتجادِلَيْن يريد أن يقرّر قوله ويحقق رأيه، فهذا لا حاجة لمناقشته، ولا تضييع الزَّمان فيه.

ومثل هذا الذي أعرض عن العمل جزاءً وِفاقًا لأنَّ من كلَّفه الله عز وجل بشيء فتركه فإن الله يُورِثه أمرًا يشتغل به مما يضرُّه، كما قال الله عز وجل لبني إسرائيل حينما أنزل عليهم المنَّ والسلوى، قالوا لموسى -عليه الصلاة السلام-: ﴿**لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾ [البقرة: ٦١]، استبدلوا المنَّ والسلوى الذي يُخرجه الله عز وجل ويتنزَّل عليهم من غير كدٍّ ولا تعب وهو من أجود المطعومات، استبدلوه بالثوم والبصل والبُقُول!

وهكذا حينما يُكلَّف الإنسان بالعمل ويتشاغل وينصرف عنه ينشغل بأمور تضرُّه من الجدل والمراء وتضييع الزمان بأمور لا تعود عليه إلا بالضَّرر، ومن ذلك أنه ينشغل بالأغاليط والمسائل المتكلَّفة ويتتبَّع ذلك.

وقد كان السلف يكرهون ذلك أشدّ الكراهية، الإمام مالك -رحمه الله- جاءه رجل فسأله عن رجل وطأ على دجاجة ميتة فخرجت منها بيضة ففقست، فما حكم هذا الفرخ؟! فلم يكلّمه الإمام مالك وما أجابه، ما ردَّ عليه، فقال: لماذا لم تُجِبني؟! فقال: "سَلْ عمَّا تنتفع به ولا تسأل تكلُّفًا".

وهذا الحسن البصري -رحمه الله- يقول: "إنَّ شِرار عِباد الله قومٌ يحبُّون شرار المسائل، يُعَمُّون بها عبّاد الله"، يعني يبحث عن المسائل الغامضة والشُّبه والمسائل الصعبة جدًا التي تكون مُنغلِقة عن الفهم، ويعرضها على هذا والثاني والثالث والرابع ويختبر أذهانهم وأفهامهم فيها.

خرج علي -رضي الله عنه- يومًا إلى أصحابه فقال سلوني عمَّا شئتم فقال له ابن الكوَّى: "ما هذا السَّواد الذي في القمر؟"، فقال: "أعمى سأل عن عمياء"، كان المفروض أن يسأل عن أشياء تَعْنِيه من الحلال والحرام وما إلى ذلك. وسُئِل عن مسألة مُشَابهة فقال للسائل: "ويلك سَلْ تفقُّهًا ولا تَسَل تعنُّتًا".

وجاء رجل يُلحُّ على الإمام أحمد ويسأله عن بعض المسائل المعقَّدة الغامضة، فقال له الإمام أحمد: "سل عن الصلاة والزكاة شيئًا تنتفع به، ما تقول في صائم احتلم؟"، فقال الرجل: "لا أدري"، مسائل بسيطة جدًا مما كُلِّف به لا يعرفه، لكن يعرف المسائل الصعبة والشُّبه ويعرضها على هذا وهذا، ويلبّس على الناس، هذا من شرار الناس.

- الثالث من سمات هذا العلم النافع: **أنه يحمل صاحبه على الورع في كل شيء.**

وقد تكلَّمت في بعض المناسبات قريبًا عن الورع بكلام طويل، ولكني أنبّه هنا إلى أن هذا العلم يُورِث خشية الله عز وجل كما سبق، ومن ثمَّ فإنه يتحرَّز من الوقوع في محارِم الله تبارك وتعالى، وارتكاب المحظورات، أو ترك ما أمره الله تبارك وتعالى به، فيَحْتَاط لنفسه، فيَترك ما اشتبه عليه أنَّه حرام ويتجنّبه، ويفعل ما يشكُّ في أنَّه يجب عليه، وهكذا في مسائل العلم إذا سُئل لا يتكلَّم من غير علم ككثيرٍ من العامَّة وممن لم يُوَفَّق من طلبة العلم.

بل لرُبَّما عُلِّمَ في المدارس أنَّه إذا سأله التلميذ عن مسألة لا يعرفها أنَّه إن كان حاذِقًا أنَّه يُحسن التَّخلُّص في الجواب ولا يقول: "لا أدري"، ولكن يقول: هذه مسألة مُهِمَّة ينبغي عليك أن تبحثها وأن تأتي لنا بها في الدرس القادم، فيشتغل هذا الطالب المسكين بنفسه ويبدأ يضرب أخماسًا بأسداس، كيف يجمع هذه المسألة ومن أين يُحَصِّل مصادرها ومراجعها ومن يسأل ومن يرجع إليه، وذلك الأستاذ البليد قد فَرَّ من قول: "لا أدري" بهذه الحِيلة.

أو أنَّه يقول: "هذه مسألة مهمة ذَكِّرني بها في آخر المحاضرة"، يُريد أن ينسى هذا الطالب وأن يخرج هذا المعلم من هذا المأزق، لماذا لا يقول بملء فيه: "لا أعرف"، ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٧٦]، والله عزَّ وجل يقول: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦].

هذا عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: "أدركتُ عشرين ومائةً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار ما فيهم من أحدٍ يُسأل عن شيءٍ إلَّا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه، ولا يحدث

حديثًا إلَّا ودَّ أن أخاه كفاه". وكان ابن سيرين إذا سئل عن شيء من الحلال والحرام تغيَّر لونه وتبدَّل حتى كأنَّه ليس بالذي كان.

ويقول عطاء بن السائب: "أدركتُ أقوامًا إن كان أحدهم لَيُسأل عن الشيء فيتكلم وإنَّه لَيَرعُد"؛ ينتفِض وهو يتكلَّم في فُتيا في الحلال والحرام.

ويقول سفيان: "أدركتُ الفقهاء وهم يكرهون أن يُجيبوا في المسائل والفُتيا ولا يُفتون حتى لا يجدوا بُدًا من أن يُفتوا"، ويقول: "أدركتُ النَّاس ممن أدركت من العلماء والفقهاء وهم يترادُّون المسائل"؛ يعني كل واحد يقول: اسأل غيري، "يكرهون أن يُجيبوا فيها، فإذا أُعفُوا منها كان ذلك أحبَّ إليهم".

ويقول عُبَيد ابن سعيد: "سألتُ عَلْقَمَة عن مسألة فقال: ائتِ عَبِيْدَة يعني السَّلْمَاني فاسأله، فأتيت عبيدة فقال: ائتِ علقمة، فقلت: علمة أرسلني إليك، فقال: ائتِ مَسْرُوقًا -يعني ابن الأجْدَع- فاسأله، فأتيت مسروقًا، فسألته فقال: ائتِ علقمة فاسأله، فقلت: علقمة أرسلني إلى عبيدة وعبيدة أرسلني إليك!، فقال: ائت عبد الرحمن ابن أبي ليلى، فأتيت عبد الرحمن ابن أبي ليلى فسألته، فكرهه ثم رجعت إلى علقمة فأخبرته، قال: كان يُقال أجرأ القوم على الفُتيا أدناهم علمًا".

هؤلاء أكابر، جبال في العلم، وكل واحد يقول: اذهب إلى فلان واسأله، فلماذا يتحمَّل الإنسان هذا في رقبته والقضية ليست جليَّة واضحة بالنسبة إليه! هل فكرنا في هذا أيها الإخوان؟!

ما نشاهده من الجَرَاءة في الحج، في كل خيمة مُفتٍ، هل هذا أمرٌ يوافق ما كان عليه السلف رضي الله تعالى عنهم؟ الجراءة على الله عزَّ وجل والتنافس على الفُتيا في الحملات أحيانًا، هذا يريد أن يكون هو المتصدِّر للفتيا والآخر يريد أن يكون هو المتصدِّر للفتيا، ولماذا تتحمَّل آثام هؤلاء جميعًا؟! وكثير من مسائل الحج الفرعيَّة الجُزئية قد لا يوجد فيها أدلة خاصة واضحة صريحة يرتفع بها الخلاف، فماذا تقول للناس؟ هل تنقل لهم كلام أهل العلم الذين يقلدونهم وإن كنت تعتقد في بعض المسائل خلافه أم ماذا تصنع؟ فهل فكرنا في هذا؟!

يقول سفيان الثوري -رحمه الله-: "**من أحبَّ أن يُسأل فليس بأهلٍ أن يُسأل**"، هذه قاعدة، يقول إبراهيم النَّخَعِي وهو عالمٌ فقيه في زمان التابعين يقول: "والله لقد تكلَّمت، ولو أجد بُدًّا ما تكلمت، وإنَّ زمانًا أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء"، هذا يقوله إبراهيم النخعي فماذا يقول غيره؟!

وخرج عليٌّ -رضي الله عنه- يومًا على أصحابه وهو يمسح بطنه ويقول: "يا بردها على الكبد.. يا بردها على الكبد، سُئلت عمَّا لا أعلم فقُلت لا أعلم"..!

ويقول ابن مسعود: "أيها الناس من علِم منكم علمًا فليقُل به، ومن لم يعلم فيقول: لا أعلم، والله أعلم؛ فإنَّ مِن عِلم المرء أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، وقد قال الله تعالى: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾ [ص: ٨٦]".

وجاء رجل إلى ابن عمر يسأله عن فريضه فقال: "لا أدري"، فقام الرجل فقال بعض أصحاب ابن عمر: ألا أخبرتَ الرجل؟ فقال: "لا والله ما أدري عن أي شيء أخبره"!.

وكان بعضهم إذا سُئِل عن المسألة التي ليس فيها نصٌّ فاصل كان لا يقول حلال وحرام، وإنما يقول: "أكره، يستحبون كذا، كانوا يكرهون كذا"، كما قال إبراهيم بن أدهم: "كانوا يكرهون أشياءً ولا يقولون حرامًا".

وجاء رجل إلى الإمام مالك -رحمه الله- يسأله عن شيء فقال له مالك: "لا أدري"، فقال الرجل: فأذكر عنك أنَّك لا تدري؟! قال: نعم احكي عني أني لا أدري".

والشاطبي نقل وكذلك ابن عبد البَرّ في [جامع بيان العلم] ذكر روايات كثيره جدًا عن الإمام مالك أنه ربما سئل عن أربعين مسألة ولا يجيب إلا عن مسألتين أو ثلاث مسائل، ولربما جاءه الرجل مسافة ستة أشهر ليعرِض عليه بعض المسائل ولا يجيب. جاء ذلك في كثير من الروايات وهو إمام دار الهجرة.

وأما الذي لم يتحقَّق بالعلم النافع فلا نجِده كذلك، فهو يتكلَّف ما لا يعلم ويتكلَّم من غير برهان عنده من الله، يقول الإمام مالك -رحمه الله-: "أدركتُ أهل هذه البلدة -يعني المدينة- وإنهم ليكرهون هذا الإكثار الذي فيه الناس اليوم"، يريد المسائل، وكان يعيب كثرة الكلام والفُتيا، ويقول: "يتكلَّم أحدهم كأنه جملٌ مُغتَلِم، يقول: هو كذا هو كذا يهدِر في كلامه، يعني يُفتي عن كل مسألة يُسأل عنها من المسائل الواضحة والغامضة"، وكان يكره الجواب في كثرة المسائل ويقول: "قال الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، فلم يأتِه في ذلك جواب".

- الرابع من سمات هذا العلم النافع أيها الإخوة: **أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وطلب الرئاسة والشهرة.**

فيتجنَّب ذلك جميعًا ويخاف من عواقبه، ويخشى أن يكون توقير الناس له وتعظيمهم له استدراجًا.

وكان الإمام أحمد –رحمه الله– يخاف على نفسه من بُعد الصِّيت والشُّهرة ومعرفة الناس به، بل كان الواحد منهم يدعو ربَّه ألَّا يكون له ذكر .كان ابن مُحيريز يقول: "اللهم إني أسألك ذِكرًا خاملًا"، ويقول سفيان: "كان رجل من الأنصار يقول: اللهم ذِكرًا خاملًا لي ولبنيّ"، ما يسأل ربَّه أن تُسلَّط عليه الأضواء وأن يكون شهيرًا يعرفه القريب والبعيد، كان يقول: "اللهم ذِكرًا خاملًا لي ولبنيّ، ولا تُنقِصنا ذاكَ عندك شيئًا".

وأما الخليل بن أحمد الإمام المعروف في اللغة كان من دعائه: "اللهم اجعلني عِندك من أرفع خلقك، واجعلني في نفسي من أوضَعِ خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك".

دخل عمُّ الإمام أحمد عليه وهو في حال من الغم والحزن، وكان هذا هو الغالب على الإمام أحمد –رحمه الله– فقال له: إيش هذا الحزن؟ إيش هذا الغم؟ فرفع رأسه وقال: "يا عم طوبى لمن أخْمَلَ الله ذِكره.. طوبى لمن أخمل الله ذِكره".

وكانوا يُوصون بذلك كما أوصى ابن مُحيريز رجلًا سأله في السفر أن يوصيه بوصية قبل أن يفارقه، فقال: "إن استطعت أن تَعرِف ولا تُعرَف، وتمشي ولا يُمشى إليك، وتسأل ولا تُسأل، فافعل".

وكانوا يكرهون الشُّهرة غاية الكراهة حتى قال إبراهيم بن أدهم: "ما صَدَق اللهَ عبدٌ أحبَّ الشُّهرة"، ويقول بِشر بن الحارث: "لا أعلم رجلًا أحبَّ أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتُضح"، نسأل الله العافية، ويقول: "لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس".

والعجيب أن الثوري –رحمه الله– وهو مَن هو بالعلم والحفظ والإمامة والورع كان يقول: "وجدتُ قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب بتُوتٍ وعناء، يعني عليهم أكسياء غليظة"، ما يعرفون سفيان الثوري، فإذا جاء معهم يظنونه رجلًا من الأعراب أو من البادية أو من عوَّام الناس، فيقول: قلبي يصلح هناك، أن أجلس معهم، لا تقدير ولا توقير ولا تقديم في المجالس، ولا توسيع في الطريق ولا خدمة ولا غير ذلك، أعيش كما يعشون، آكل كِسرة وأجلس على التراب دون أن يعرفني أحد، يقول: "قلبي يصلُح هناك"، لا يصلح في الأماكن التي إذا شاهدوه فيها قالوا: جاء سفيان، ووسّعوا له الطريق، وأكرموه وعظَّموه، هذه معانٍ نحتاج أن نتأملها أيها الإخوان..

حتى أن الإمام أحمد –رحمه الله تعالى– كان يقول: "أريد أن أكون بشِعبٍ بمكة حتى لا أُعرف، قد بُليتُ بالشُّهرة، إني أتمني الموت صباحًا ومساءً"، وأما مورِّق العِجليّ كان يقول: "ما أحب أن يعرفني بطاعته غيرُه"، ولما قَدِم ابن المبارك إلى المصِّيصة سأل عن رجلٍ يقال له محمد بن يوسف الأصبهاني الزاهد من العبّاد والزّهاد، فما عرفه أحد، فما توصَّل إليه إلاّ بصعوبة، فلما لقيه قال: "مِن فضلِك أنَّه لا يعرفك أحد"، يقول: من محاسنك وشمائلك أنَّ الناس هنا لا يعرفونك، هذه منقبة عند بن المبارك!

وأما أيوب السِّختياني الإمام العالم الكبير العابد فكان يقول: "ما صدق عبدٌ إلا سَرَّه ألَّا يُشعَر بمكانه"..

وكان خالد بن معدان الكلاعي إذا كثُرت حلقته قام مخافة الشهرة. وكان أبو العالية إذا جلس إليه جماعة كثيرة، أكثر من ثلاثة قام، وسأل أبو بكر بن عياش الأعمش: "كم رأيتَ أكثر ما رأيت عند إبراهيم النخعي؟ قال: أربعة، خمسة"، إبراهيم النخعي يحضر درسه أربعة أو خمسة!

وكان أبو بكر بن عياش يقول: "ما رأيتُ عند حبيب بن أبي ثابت ثلاثة قط"، في دروسه، فهل طالب العلم يستحضر هذا المعنى ويفتح درسًا ولو لم يحضر له إلا واحد؟!

لماذا يغضب الإنسان أحيانًا إذا لم يحضر له مئات في درسٍ علمي؟! وهذا الإنسان الواحد ينتفع بك وينقل علمك وتُذاكر أنت هذا العلم، ولا تنتشر أخطاؤك، ولا يصيبك من العِلل والأدواء والأمراض والزهو والكبر والرياء ما يعتري من تَجَمْهَر الناس على حضور درسه، فهذا أدعى إلى سلامة القلب، وتؤجر أنت على هذا العمل، وتكون من جملة من ينشرون العلم ويُبلّغون عن الله عز وجل، فالمقصود يحصل مع قلة التّبِعات والإضرار. فأيّ غنيمة أيها الإخوان أعظم من هذا؟!

أيوب السختياني كان يقول لسعيد بن أبي إياس: "إني أخاف ألَّا تكون المعرفة أبقت عند الله حسنة"!؛ يقول أنا صرت إنسانًا معروفًا، أخشى أن تكون معرفة الناس لم تُبقِ لي عند الله عز وجل شيئًا!، "إني لأمُرُّ بالمجلس فأسلّم عليهم وما أرى أنَّ فيهم أحدًا يعرفني، فيردون عليَّ

ويسألون مسألة كأنهم قد عرفوني جميعًا، فأي خير مع هذا!"؛ هو يتضايق لما يمر على القوم ويردُّون عليه السلام ويسألونه عن مسألة، وهذا يعني أنهم قد عرفوا أنه أيوب السختياني.

وكان إذا مر بمجلس فسلَّم ردُّوا ردًا شديدًا، فكان يقول: "كأن ذلك نقمة". وخرج في سفر فتبعه ناس كثير، فقال: "لولا أني أعلم أن الله عز وجل يعلم من قلبي أني لهذا كارهٌ لخشيتُ المقتَ من الله عز وجل".

وأما بِشر بن الحارث فكان يقول: "إنما يُراد من العلم العمل، اسمع وتعلَّم واعلم وعلم واهرب، ألم ترَ إلى سفيان الثوري كيف طلب العلم فعلِم وعلَّم وهرب، وهكذا العلم إنما يدل على الهرب عن الدنيا ليس على طلبها"، لا ترى طالب العلم عند التجار والكبراء يغشى مجالسهم وهو دائم الحضور عندهم!

طلب رجلٌ لبشر بن الحارث: "أوصني"، قال: أخمِل ذكرك، وطيِّب مَطعَمَك"، وقال عطاء بن مسلم: "كنت وأبا إسحاق ذات ليلة عند سفيان وهو مضطجع، فرفع رأسه إلى أبي إسحاق فقال: إيَّاك والشُّهرة".

وهؤلاء -أيها الإخوان- أصحاب هذه السِّمة لا يرون لأنفسهم حالًا ولا مقامًا، ويكرهون بقلوبهم المدح والتزكية والإطراء، كما قال الحسن: "إن الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المواظب على عبادة ربه"، وفي بعض الروايات عنه: "الذي لا يحسد من فوقه، لا يسخر ممن دونه ولا يأخذ على علمٍ علمه الله أجرًا"؛ العلم مجانًا.

يقول مالك بن دينار: "مُذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمَّهم؛ لأن حامِدهم مفرّط وذامَّهم مفرّط؛ إذا تعلَّم العالم العلم للعمل كسره، واذا تعلَّمه لغير العمل زاده فخرًا".

يقول الذهبي: "كم من رجل نطق بالحق وأمر بالمعرف فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده وحب الرئاسة الدينية، فهذا داء خفي، فمن طلب العلم العمل كسره العلم، وبكى على نفسه".

وكان بعض السلف يقول: "ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعًا لربه فإنه كلما زاد علمًا بربه ومعرفة به ازداد منه خشية ومحبَّة، وازداد له ذلًا وانكسارًا".

خرج ابن مسعود ذات يوم من منزله فتبعه الناس فلتفَّت إليهم فقال: "علامَ تتبعوني؟ والله لو تعلمون ما أُغلق عليه بابي ما تبعني منكم رجل"، وكان الحسن يقول: "إنَّ خفق النعل خلف الرجل قلَّما يُلبسُ قلوب الحمقى"، وخرج ذات يوم فتبعه قوم فالتفت إليهم فقال: "هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن".

نتوقَّف عند هذا، وأسأل الله عز وجل أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا..

والأمر كما قيل: "يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق"..

فنسأل الله عز وجل أن يبارك لنا ولكم بما سمعنا، وإن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين.

مع تحيات فريق مشروع التفريغ ☺

لمزيد من المعلومات الرجاء زيارة هذا الرابط:

http://www.shbaboma.com/vb/forumdisplay.php?f=87